القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة في شعر أبي فراس الحمدانيّ وسلوكه

الدكتورة سميحا زريقي*

الملخّص

يتناول البحث الجانب القيميّ في شعر أبي فراس الحمدانيّ، فيرصد قيمه الأخلاقيّة والإنسانيّة من خلال سلوكه ومواقفه، موضّحًا إيّاها، وكاشفًا أسبابها، هادفًا من ذلك إلى التّأكيد على دور القيم الرّفيعة في بناء مجتمع حضاريّ، يليق بإنسانيّة الإنسان. مؤكدا أن الحكمة ليست وليدة عمر طويل وتجارب، بل هي نتاج خلق كريم، صاغته خصائص فطريّة متأصّلة في شخصيّة صاحبها.

كما يؤكد البحث أنه يمكن اعتماد منهج أبي فراس الأخلاقي قانونًا مؤسّسًا لمجتمع إنسانيّ جديد، قائم على القيم التي تعزّزها مناهج تعليميّة، وأبحاث علميّة، وسلطة راعية ومشرفة على حضانة هذه القيم؛ تكافئ من يعزّزها، وتزجر من يستهين بها.

كلمات مفتاحيّة: القيم الأخلاقيّة، القيم الإنسانيّة، المجتمع الحضاري.

المقدّمة:

الأدب – كما هو معروف – انعكاس للواقع، ومساعد على ضبطه وتنظيمه؛ فهو وسيلة تأثير في سلوك الأفراد والجماعات، وقيمهم واتّجاهاتهم.

ويتجلّى الإنتاج العقلي للبشر في الآثار الأدبيّة والفلسفيّة ومختلف أنواع الفكر والمعرفة التي تخدم الحياة البشريّة، قيل:« إنّ البحث... في الحياة الأخلاقيّة والكشف عمّا تنطوي عليه من آيات الخير، وأسس الواجب، وضروب الفضيلة من أوثق الأبحاث الجدّيّة اتّصالا

---

* مدرّسة في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق، سورية.

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/٩ هـ.ش= ٢٠١١/٨/٣١م تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/٣٠ = ٢٠١١/١٢/٢١م

بالفكر البشريّ»[١] لذلك يحاول البحث دراسة شعر أبي فراس الحمْداني لمعرفة الجانب القيمي لديه؛ فيرصد قيمه الأخلاقيّة والإنسانيّة، موضّحًا إيّاها، وكاشفًا أسبابها.

أهمّية البحث والهدف منه:

يكتسب البحث أهمّيّة خاصّة باعتباره دراسة غير مسبوقة – بحسب علمي– في شعر أبي فراس، تناقش الجانب القيمي لديه، وتربط الماضي بالحاضر، فتقدّم خير نموذج من الماضي الرّفيع بما عبّر عنه من قيم رفيعة ومواقف إنسانيّة، يمكن أن ترشدنا إلى اختيار الاتّجاه الصّحيح في حاضرنا ومستقبلنا المأمول؛ لأنّ الفاضل يجب الاسترشاد بفكره.[٢]

وتهدف الدّراسة إلى التّأكيد على دور القيم الإيجابيّة في بناء مجتمع حضاريّ، يليق بإنسانيّة الإنسان. كما تهدف إلى تقديم نموذج أمثل للجيل المعاصر، لعلّه يبعث فيه روح الأمل، ويخلق لديه ثقة بالنّفس وبالمستقبل من خلال ثقته بأصالة أدبه وتراثه، ومواقف رجاله؛ إذ إنّ الماضي المشرّف يمدّ الحاضر بالأمل، ويمنحه رسوخًا وصلابة تضمن نجاحاته، وفي هذا السّياق يحضرني قول الأستاذ حافظ الجمالي:« أمّا إذا كان لا بدّ حقًّا من التّراث، فإنّ إعادة الحياة إلى قيمنا الأصيلة هي بمثابة الأمر الحيوي، الذي نشعر أنّ حاضرنا يستند فيه إلى الماضي.»[٣] وأيضًا قول الدّكتور حسام الخطيب في معرض حديثه عن عمليّة إحياء التّراث:

«هي وسيلة لتحويل التّراث من زمن إلى زمن، بحيث تتفاعل مع الحاضر لتسهم معه في صنع المستقبل وفقًا لمدى ما تحمله من طاقة وحيويّة وجدوى »[٤] والبحث يحاول هذا من خلال الكشف عن حيويّة القيم وجدواها في صنع المستقبل الأفضل.

التّعريف بالشّاعر:

لن أسهب في الحديث عن الشّاعر وحياته، فهو أشهر من أن يوصف في سطور، بيدأنّ طبيعة البحث تقتضي إلمامًا موجزًا بسيرته بغية الولوج إلى مضمون موضوع الدّراسة.

---

[١] عادل العوّا، *الأبحاث الأخلاقيّة*، ص: ٥.

[٢] يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانيّة*، ص: ٩٧.

[٣] حافظ الجمالي،« حريّة الفكر في الحضارة العربيّة الإسلاميّة» *التّراث العربي*،ص:٥ العدد الثاني ١٩٨٠م دمشق.

[٤] حسام الخطيب، «مسائل تراثيّة»، *التّراث العربي*، ص: ٣. العدد الثاني ١٩٨٠م دمشق.

فأبو فراس هو الحارث بن أبي المعالي سعيد بن حمدان، ينتهي نسبه إلى تغلب. ولد سنة ٣٢٠ للهجرة[١] وقتله قَرْغُوَيْهِ سنة ٣٥٧ للهجرة[٢]. وهو ابن أخ سيف الدّولة الأمير الحمداني، تولاه بالرّعاية بعد مقتل أبيه، وولاه إمارة مَنْبِج وحَرّان[٣] فكان الأمير الفارس المدافع عن العرب في وجه الغزوات الرّوميّة.

قال الصّاحب بن عبّاد: « بدئ الشّعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس وكان شجاعًا كامل الأدب».[٤] وقال الثّعالبي في وصفه: « كان فرد دهره، وشمس عصره أدبًا وفضلا وكرمًا ومجدًا وبلاغة وفروسيّة وشجاعة، وكان المتنبّي يشهد له بالتّبريز...وكان سيف الدّولة يعجب بمحاسنه ويميّزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله»[٥] له وقائع كثيرة، جرح في إحدى معاركه مع الرّوم وأسر فكتب روميّاته في الأسر، وله ديوان شعر، يمتاز شعره بالحسن والجودة والسّهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة، ومعه رواء الطبّع، وسمة الظّرف، وعزّة الملك.[٦]ورغم قصرعمره ترك سيرة حياة تستخلص منها العبر،وشعرًا ينبض بالمعاني السّامية.

لقد أورد البحث ستّة وخمسين بيتًا تفصح عن قيمه؛ منها تسعة وثلاثون بيتًا تعبّر عن قيمه الأخلاقيّة، وسبعة عشر بيتًا تصوّر قيمه الإنسانيّة.

---

[١] ابن العماد الحنبلي، *شذرات الذّهب*، ٣/ ٢٥. خير الدّين الزّركلي، *الأعلام* ٢/ ١٥٥.

[٢] وقرغويه هو غلام سيف الدّولة من الأتراك، وكان تغلّب على حلب بعد وفاة سيّده. ينظر: مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٥٠ وفيات الأعيان ٢/ ٦٠ وشذرات الذهب ٣/ ٢٥ وكتاب العبر لابن خلدون ٤/ ٢٤٢. وذكر في زبدة الحلب ٢/ ١٥٥:« فأمر قرغُوَيه بعض غلمانه بالتّركيّة بقتله، فاحتزّ رأسه، وحمله إلى سعد الدولة » كما ذكر في مرآة الجنان ٢/ ٣٧٠: « وقيل بل قتله غلام سيف الدولة ولم يعلم أبو المعالي، فلما بلغه الخبر شقّ عليه.»

[٣] ابن خلدون، *العبر وديوان المبتدأ والخبر* ٤/ ٢٤٢. وخير الدين الزّركلي، *الأعلام* ٢/ ١٥٩.

[٤] محمّد بن أحمد الذّهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، ٢/ ١٥٩. والزّركلي، *الأعلام*، ٢ / ٥٨- ٥٩.

[٥] ابن العماد الحنبلي، *شذرات الذّهب*، ٣/ ٢٤. ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، ٢/ ٥٨- ٥٩.

[٦] ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، ٢/ ٥٩.

هذه القيم كلّ متكامل، لا تنفصل إحداها عن الأخرى، وإنّما تتلاقى في رسم معالم شخصيّته، والإفصاح عن مواقفه وسلوكه، لكن طبيعة البحث تقتضي هذا الفرز الشّكلي بغية الشّرح والمناقشة. فما هي قيمه؟ وكيف كانت مواقفه؟

أ- القيم الأخلاقيّة في شعره:

نتناول الجانب الأخلاقي لدى الشّاعر ليس من وجهة البحث عن الفضائل من النّاحية النّظريّة وحسب، بل لأنّ لهذه الفضائل دورًا في حياتنا الواقعيّة إذا ما هيّئ لها من يرعاها ويجسّدها قيمًا فعّالة في التّربية والتّنشئة السّليمة للأجيال، وهذا ما يدعمه قول الدّكتور عادل العوّا: «الأخلاق لم تعد مجرّد بحث عن الفضائل المبعثرة في الأنفس دون الآفاق، بل هي سبيل إنفاذ ما ينبغي أن يكون»[١] إذن هي وسيلة لتحقيق ما يجب تحقيقه؛ فالأخلاق أداة بناء حضاريّ، تعمل على ترسيخ ما له أحقّيّة الوجود، فتحارب الخطأ والسّلبيّات، وتدعم الصّواب والإيجابيّات في المجتمع الإنساني؛ لترتقي به إلى الأفضل. كما إنّ القيم الرّفيعة التي نكتشفها في شخصيّة ما، أو مجتمع ما تساعدنا على فهم السّلوك والممارسة العمليّة لأصحابها، فهي وسيلة مُعِينة على فهم الواقع، واستيعاب حركته، وكشف عيوبه التي ينبغي العمل على التّخلّص منها؛ إذ هي «ذلك العدد القليل من المثُل العليا الأساسيّة التي يمكن أن تعيننا على تفسير السّلوك العقلي للإنسان»[٢] فللجانب الأخلاقي دور مهمّ في حياة الإنسان؛ إذ ترسم أخلاقُه معالم شخصيّته، وتضبط سلوكه ومواقفه. وهذا ما تجلّى في شعر أبي فراس الذي جاء ليفصح عن أخلاقه، ويعبّر عن مواقفه الحياتيّة.

ويقدّم البحث من خلال كشفه قيم أبي فراس الأخلاقيّة تفسيرًا أصيلا لأقواله ومواقفه التي يمكن أن نناقشها وفق المحاور الآتية:

١- العفّة ونقاء السّريرة:

«العفّة فضيلة القوّة الشّهوانيّة، تلطّف الأهواء فتترك النّفس هادئة، والعقل حرًّا» [٣] وقد رصد البحث أبياتًا من شعر أبي فراس تعبر عن الفضيلة والعفّة في تركيبته النّفسيّة

---

[١] محمّد على العجيلي، *الأخلاق عند فرويد*، ص: ٩- ١٠.

[٢] شفيق رضوان، *علم النّفس الاجتماعي*، ص: ١٥٢.

[٣] يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانيّة*، ص: ٩٥.

والرّوحيّة؛ إذ كان الرّجل الفاضل، ذا النّفس النّقيّة، والعفّة التي ضبطت سلوكه، ولطّفت أهواءه؛ فجعلت عقله حرًّا، وإرادته قويّة، تلجم نزواته وترتقي بسلوكه إلى طهارة الرّوح والجسد. تجلّى هذا في أكثر المواقف خصوصيّة؛ إذ تحدّثنا أشعاره عن خلوة له مع حبيبته تحت جنح الليل بقوله[٤]:

وكم ليلة خضتُ الأسنّة نحوها ... وما هدأت عين، ولا نام ساهــرُ
فلمّا خلونا – يعلم الله – وحده ... لقد كرمتْ نجوى، وعفّت ضمائرُ
وبتُّ يظنُّ النّاس فيَّ ظنونَهمْ ... وثوبي ممّا يرجــم النّاس طاهــرُ
ولا ريبةٌ إلا الحديــثُ كأنــّه ... جمانٌ هــوى، أو لــؤلــؤٌ متناثرُ

فهو لم يضعف أمام رغباته، ولم تقده أهواؤه إلى الرّذيلة على الرّغم من شفافيّته ورقّة أحاسيسه ومشاعره، بل اقتصر لقاؤه بحبيبته على النّجوى الكريمة، المكلّلة بالعفّة والصّون. وهذا ينسجم مع طبعه، ومع خلق الفروسيّة الذي تحلّى به، فاجتماع حبّه مع فروسيّته خلق جوًّا روحيًّا ساميًا، وغزلا عفيفًا، بعيدًا عن الحسيّة الرّخيصة، فكان طاهر القول والفعل؛ إذ«الفروسيّة خلق كريم، تقوم على مبادئ مميّزة، أساسها مبدأ القوّة، ومبدأ الأخلاق، وهي سموّ في النّفس، وفضيلة في الأخلاق، وقوّة في الجسد» [١] فالشاعر محبّ لكنّ الحبّ لديه سامٍ، لا ترفّ عليه الأهواء الرّخيصة، بل مبدؤه الخير وغايته الخير.

«والحبّ في شعره ممارسة إيجابيّة، غرضها بناء صرح اجتماعي»[٢] و« ليست العفّة في حبّه ظاهرة في طرف واحد هو شخصيّته، بل هي صفة من صفات المتغزّل بها أيضًا ويقترب من العذريين حين يكون مجرّد وجود الحبيبة أو ذكرها في مكان ما منبعَ خصب وجمال، ومحرّضًا على الحبّ والخير والعطاء.» [٣] فعفّته ضمانة له ولمن يحبّ، يقول:

ويا عفّــتي ما لي وما لَكِ كــلّما ... هممتُ بأمرٍ، همَّ لي منكِ زاجرُ؟!
كأنّ الحِجا والصّونَ والعقلَ والتُّقى ... لــديَّ لِربّاتِ الخــدورِ ضرائرُ[٤]

---

[٤] *ديوان أبي فراس الحمداني*، ص: ٤.

[١] عبد اللطيف عمران، *شعر أبي فراس – دلالاته وخصائصه الفنيّة*، ص: ١١١.

[٢] عبد اللطيف عمران، *شعر أبي فراس– دلالاته وخصائصه الفنّيّة*، ص: ١٤٣.

[٣] المصدر نفسه ص: ١٤١.

[٤] ديوانه: ص: ٤.

فهو محصّن بحواجز أخلاقيّاته من أن يفعل ما تأباه نفسه العفيفة . والعفّة لديه لا تقتصر على حبّه وعلاقته بالمرأة، فعفيف النّفس عفيفُها أمام كلّ مغريات الحياة؛ فهو عفيف النّفس عن المال، يهينه، ولا يسعى إليه إلا ليصون شرفه وعزّة نفسه كما في قوله:

أحمي حريمي أنْ تُبا حَ، ولستُ أحمي ماليه [٥]

فهمّه منصبّ على حماية شرفه وعرضه، وصونهما من أيّة استباحة، أمّا مالُه فليس من أولويّات همّه، كما قال:

وما حاجتي في المال بغيُ وفوره إذا لم أفرْ عرضي، ولا وفّرَ الوفرُ[٦]

فالمال لديه وسيلة لحماية شرفه، وليس غاية للثّروة. يلتقي في موقفه هذا مع الشّاعر الجاهلي عنترة بن شدّاد إذ يقول:

وإذا شربت فإنّني مستلك مالي، وعرضي وافر لم يُكْلَمِ[٧]

فقضيّة العرض لديهما أولويّة لا يُساوَم عليها، تبذل الأموال في سبيل صونها؛ فأبو فراس يحتقر المال، ويرفض الثروة، إن لم تكن لحماية حريمه وعرضه. وعنترة حتّى في حالة شربه لا تغيب عن ذهنه هذه المسألة وضرورة حمايتها.

ومن يترفّع عن متعة المال والرّغبات يكن هدفه ساميًا، خاصّة إذا انطلق من فروسيّة أصيلة؛ فخلق الفروسيّة لدى أبي فراس جعله يقصي رغباته، ويؤثر الآخرين بالصّون والحماية، وهذا ما تجلّى بقوله:

فأظمى حتّى ترتوي البيضُ والقنا وأسغَبُ حتّى يشبع الذّئبُ والنّسرُ[١]

فالشّاعر هنا في حالة نكران للذّات، لا يفكّر براحتها أو ريّها وشبعها، ولا يسعى إلى المكاسب على حساب عزّتها، إنّما يتحمّل المشاقّ والصّعوبات بإرادة قويّة، ونفس إنسانيّة كبيرة، وفي هذا تَحَلٍّ بالفضيلة، وسعيٌ إلى هدف أسمى، قيل:«والفاضل يعلم الخير ويعرف ما يجب أن يفعل في كلّ حالة؛ لأنّ نظره شاخص أبدًا إلى الخير المطلق»[٢] وهذا

---

[٥] ديوانه. ص: ١٤٥.

[٦] ديوانه. ص: ٩٢.

[٧] الحسين بن أحمد الزّوزنيّ، *شرح المعلّقات السّبع*، ص: ٢٠٤.

[١] ديوانه. ص: ٩٢.

[٢] يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانية*، ص: ٩٧.

ليس ببعيد عن صفات شاعرنا فقد «قال أبو علي التّنوخي: كان أبو فراس قد برع في كلّ فضيلة وحسن خَلْق وخُلُق، وفروسيّة تامّة، وشجاعة كاملة، وكرم مستفيض» [٣]

٢- مجاهدة النّفس والتّرفّع عن الدّنايا:

مجاهدة النّفس من أقوى أنواع الرّدع النّفسيّ وأكثرها صرامة، ولا ينجح في ذلك إلا ذوو النّفوس الكبيرة، كأبي فراس الذي كان صارمًا مع نفسه، يصونها، ويبعدها عن كلّ ما يعيبها، فيترفّع عن الدّنايا، وينأى بها عن كلّ خلق ذميم؛ حتّى تنسجم مع حياته الأخلاقيّة ومنطلقاته الفكريّة؛ فسلوكه يرصد هذه المنطلقات، وممارساته تعبّر عن ضميره وأخلاقه فما يقوله ويفعله يعبّر عن مكنونات نفسه، ويجسّد إشراقات روحه ووجدانه، فهو القائل:

أفرّ من السّوء، لا أفعلُهْ ومن موقف الظّلمِ، لا أقبلُهْ[٤]

يفرّ من السّوء، وكأنّه نَجَس، ولا يقبل الظّلم، لا لنفسه ولا لغيره، فهولا يرضى أن يلحق الضّيم بمن هو أضعف منه حتّى لو اعتدى عليه، كما في قوله:

لستُ بالمستضيم مَنْ هو دوني لاعتداءٍ، ولستُ بالمُستضام[٥]

كما إنّه الفارس النّبيل الذي يحصّن نفسه من المذلّة، ولا يتنازل عن إبائه حتى في حماية نفسه من الموت؛ فهو لا يدفع عنها الموت بفعل مشين، كما في قوله [٦]:

ولا خيرَ في دَفْع الرّدى بمذلّة كما ردّها يومًا بسَوْءَتِه عمرو[١]

وقوله في إحدى المعارك مع العدوّ:

وقال أُصَيحابي: الفرارُ أو الرّدى؟ فقلــتُ: هما أمران أحلاهما مُــرُّ

ولكنّني أمضي لما لا يُعيــبُني وحسبُكِ من أمرين خيرُهما الأسرُ[٢]

---

[٣] محمّد بن أحمد الذّهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، ص: ١٥٩.

[٤] ديوانه: ص: ٧٦.

[٥] ديوانه. ص: ١٢٧.

[٦] ديوانه. ص: ٩٢.

[١] يشير هنا إلى حادثة تاريخيّة جرت بين الإمام علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – وعمرو بن العاص؛ إذ لما أدرك عليٌّ عمروًا وأراد قتله كشف عمرو سوءته؛ لعلمه بأنّ عليًا تؤذيه رؤية ذلك، فتركه، ونجا عمرو بفعلته.

[٢] ديوانه. ص: ٩٢.

فهو يأبى أن يحمي نفسه بالفرار فيلحقه العار، لكنّه يختار الكرامة حتّى لو كان معها خطر الموت أو الأسر، وهذا من شيم الفرسان، فهو الفارس الأمير الذي تحلّى بقوّة نفسيّة هزمت الصّعاب وطردت مكامن الضّعف من نفسه، فاختار ما حفظ لها إباءها وعزّتها، وفي هذا مجاهدة للنّفس، وضبط لنوازعها.« وفي حديث عن ابن عمر قال: أتى رجل رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وقال: مَن المهاجر؟ فقال: مَنْ هجر السيّئات.قال: فمن المجاهدُ؟ قال: من جاهد نفسَه» [٣] ومجاهدة النّفس تعبّر عن موقف وجوديّ، تقتضيه طبيعة فهم الإنسان لحياته، وتتطلّب منه التّحرّر من النّزوات في سبيل غاية أسمى، قيل: «أمّا حدس الماهيّة أو الرّؤية الواضحة فتقتضي موقفًا وجوديًّا منّا، تقتضي أن نتحرّر من نزواتنا الصّغيرة، واهتماماتنا التّافهة كي نصبح أكثر صفاء، إنّها تقتضي لونًا من المكابدة ومجاهدة النّفس... وهي تقتضي أيضًا أن نكون ذوي قضيّة »[٤] وهذا ليس بعيدًا عمّا تحلّى به أبو فراس وعن أهدافه الإنسانيّة التي كانت قضيّة وجوده.

٣- الوفاء ورفض الغدر:

«معنى الوفاء في اللغة الخُلُق الشّريف العالي الرّفيع» [٥]، « فالوفاء من شيم النّفوس الشّريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظّنون»[٦] فهل كان أبو فراس وفيًّا؟

هذا ما تؤكّده مواقفه، وتوضّحه أشعاره التي تُظهر خلق الوفاء متأصّلا في شخصيّته يجسّده بالقول والعمل، منطلقًا من قناعته بأنّ هذا الخلق من أهمّ خصائص الرّجولة؛ لذلك كان يحرص عليه، ويفي حتّى لأصدقائه الذين يتهاونون في ودّهم ووفائهم كما قوله:

وفي كلّ دار لي صديقٌ أَوَدُّهُ إذا ما تفرّقنا حفِظْتُ وضيّعا [٧]

---

[٣] ابن منظور، *لسان العرب*، مادّة (أمن) ١/ ٢٢٥.

[٤] أحمد حيدر، *نحو حضارة جديدة*، ص: ١٧٦.

[٥] ابن منظور، *لسان العرب*، (وفي) ١٥ / ٣٥٨.

[٦] شهاب الدّين بن محمّد الأبشيهي، *المستطرف في كلّ فنّ مستظرف*، ص: ٢٠٦.

[٧] ديوانه. ص: ٤٣.

فهو يحفظ ودّ صديقه في الوقت الذي يضيّع هذا الصّديق ودَّه، وفي هذا دليل على كبر نفس ورحابة صدر، وكريم خلق. وكذلك في قوله[٨]:

فقل لبني ورقاءَ إنْ شطَّ منزلٌ فلا العهدُ منسيٌّ، ولا الودُّ داثرُ

فهو مخلص لأصدقائه، وفيٌّ لهم حتّى لو تباعدت الأماكن، أو ضيّعوا ودّه، فلا شيء يثنيه عن وفائه لهم؛ لأنّ هذا الخلق من طبعه وتكوينه، ينسجم مع ضميره ووجدانه. كما تجلّى وفاؤه في علاقته بمربّيه سيف الدّولة؛ إذ بقي وفيًّا له، ومقرًّا بفضله كما قوله:

هل للفصاحة والسّما حةِ والعُلا عنّي مَحيد؟
إذ كنتَ سيّديَ الذي ربّيتــَني وأبي سعــيد
في كلّ يومٍ أستفيــ د من العلاء وأستزيــد
ويزيدُ فيَّ إذا رأيْـــ تُكَ في النّدى خُلُقٌ جديد[١]

فهو يقرّ بفضل سيف الدّولة عليه وعلى أبيه، ويعزو كلّ مكارم الأخلاق التي يتحلّى بها إلى تربيته إيّاه، كما يربط بين ما يستفيده من العلا والمجد والكرم وبين رؤيته سيف الدّولة، وفي هذا عرفان ووفاء يجعل منه ابنًا بارًّا، وفارسًا نبيلا. وقال في ذلك أيضًا بطريقة الاستفهام الإنكاري، وبطريقة الخبر المؤكَّد:

أأَجْحَدُه إحسانَه ليَ؟ وإنّني لكافرُ نُعْمى إنْ فعلتُ مُواربُ[٢]

فهو يرفض أن يجحد إحسان من أحسن إليه؛ لذلك استنكره، وحكم على نفسه بصرامة إن هو فعل ذلك، وفي هذا تأكيد منه على وفائه وعرفانه بالجميل.

ولأنّه وفيّ يرفض مواقف الغدر حتّى مع أعدائه، سواء كانوا سكانًا أم جيوشًا؛ فهو لا يفاجئهم بغارته، ولا يغدر بهم، بل يرسل إليهم ما ينذرهم كما في قوله:

ولا أصبحُ الحيَّ الغيورَ لغارةٍ أو الجيشَ، ما لم تأتِه قبليَ النُّذُرُ[٣]

---

[٨] المصدر السابق، ص ٧.
[١] المصدر السابق، ص ٥٨.
[٢] المصدر السابق، ص ٩٤.
[٣] المصدر السابق، ص ٩٢.

وهو في هذا يعبّر عن ثقة عالية بالنّفس، وعن خلق كريم يبعده عن الغدر؛ لأنّه سمة ذميمة يرفضها، ويتجنّبها مع العدوّ والصّديق، فهي لا تنسجم مع سموّ نفسه، لذلك هو لا يفاجئ عدوّه ولا يقاتله إلا بعد إنذاره، وبهذا يضرب المثل الأعلى في التّرفع والكِبَر.

٤- الكرامة والشّرف:

ومن تحلّى بتلك الأخلاق السّمحة لا يمكن أن يكون ذليلا، بل هذه الأخلاق تؤكّد إحساسه بالكرامة، ورفضَه للذّلّ، فالشّرف والعزّة لهما في تكوينه الخلقي والسّلوكي مكانة أصيلة، يسعى إلى تعزيزها ولو كلّفه هذا السّعيُ الجهدَ والمكابدةَ، قال[٤]:

إذا ما العزّ أصبح في مكانٍ سَمَوتُ له وإن بعُدَ المزارُ
مقامي حيثُ لا أهوى قليلٌ ونومي عند مَنْ أقلي غرارُ
أبتْ لي همّتي وغرارُ سيفي وعزمي والمــطيّةُ والقــفارُ
ونفــس لا تجاورها الدّنــايا وعرضٌ لا يرفُّ عليه عارُ

فانظر إلى الكلمات التي استعملها للتّعبير عن كرامته وعزّة نفسه؛ إذ عندما ذكر العزَّ قال: سموت له؛ لأنّ مكان العزِّ سامٍ ورفيع دائمًا بالنّسبة إليه. وعندما عبّر عن إقامته أو نومه عند من لا تميل إليه نفسه استعمل كلمة (قليل، و غرار) فهو يكابد نفسه ويتحمّل بعض المواقف، لكنّه لا يطيق الاستمرار في ذلك؛ فهو صاحب الهمّة والعزيمة، والنّفس الأبيّة التي ترفض ما يخالف طبيعتها. ثمّ انظر إلى استعماله عبارة (لا يرفّ عليه عار) في حديثه عن شرفه وعرضه؛ إذ شرفه أصيل، وعرضه مصانٌ، لا يقاربه العار.

وعزّة نفسه جعلته يرفض الثّروة والمكاسب إن لم تكن محصّلةً بالعزّ والكرامة، كما كان له موقف خاصٌّ وصارم من السّادة الذينَ يضعفون أمام رغباتهم كما في قوله:

ولا أنا راضٍ إنْ كثرنَ مَكاسبي إذا لم تكنْ بالعزّ تلك المكاسبُ
ولا السّيّد القَــمْقامُ عندي بسَيِّــدٍ إذا استنزلتْهُ عن علاهُ الرّغائبُ[١]

فلا السّيّد سيّد في نظره إذا قادته شهواته ورغباته؛ لأنّ المنساق وراء رغباته يسيء إلى سيادته وعلاه، وحتّى يبقى سيّدًا عليه أن يكون كريم النّفس، شريف الغايات.

---

[٤] المصدر السابق، ص٢٤.

[١] المصدر السابق، ص ٩٥.

وإحساسه بالكرامة يحصّنه من أن يضعف في أدقّ لحظاته خصوصيّة رغم رهافة مشاعره وصدق لواعجه فهو القائل:

نعـــم أنا مشتـــاقٌ وعنـــديَ لوعةٌ ولكنَّ مثـــلي لا يُذاعُ له ســـرُّ
إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى وأذلَلْتُ دمعًا من خلائقه الكبر[٢]

هذه النّفس الأبيّة التي تحلّى بها حمّلته مسؤوليّة صونها عن الظّهور بمظهر ضعف، وجعلته يقدّر كبَرَها وعزّتها فنأى بها عن كلّ ما يلحق بها الهوان، فهو وإن كان محبًّا، وعنده لوعة وتأجّج مشاعر لا يفضح نفسه، بل يكتم أسرارها، ويصونها، لكنّه يعيش لحظات صدقه مع الذّات عندما يكون منفردًا، في حالة خلوة مع نفسه، بعيدًا عن العيون، يرخي لمشاعره العنان لتذلّ كِبَرَ دموعه. وهو القائل في أسره مخاطبًا حمامة كانت تهدل قريبًا منه، فسَرَّ هديلها بالنّواح تبعًا لحاله:

أقول وقد ناحت بقـــربي حمامةٌ أيا جارتا لـــو تعلمين بحالي
لقد كنتُ أولى منكِ بالدّمعِ مقلةً ولكنَّ دمعي في الحوادثِ غالِ[٣]

فهو في سجنه،ورغم عذاباته يتجلّد،فلايريق كبرياءه، ولا يهين دمعه؛ لأن دموعه غالية فهي رمزعزّته وإبائه؛ لذلك لا يهدرها، بل يحبسها، ويبتلع ضعفه ليبقى عزيزًا شامخًا.

٥- احترام المبادئ:

الحياة عند أبي فراس مبدأ وموقف، يجب أن يحترم؛ لذلك فهو يرسم لنفسه منطلقًا أخلاقيًا واضحًا، يحترم مبادئه، ويفي لقناعاته؛ لأنّه اختارها بصدق منسجم مع تكوينه الرّوحي والفكري. من هذه المبادئ سعيه لفعل الجميل، وتعزيزه لقيمه، كما في قوله:

سآتي جميلا ما حَيِيْتُ فإنّني إذا لم أُفِدْ شكرًا أُفِدْتُ به أجْرا [١]

فَفِعْلُ الجميل لديه مبدأ لا يحيد عنه، وهو عندما اختاره اختاره عن وعي وقناعة؛ لأنّه ينسجم مع نظرته السّامية للحياة، ومع طبيعته الرّوحيّة والفكريّة، فهو على ثقة بأنّ نتائجه إيجابيّة، أقلُّها الشّكر ممّن يقدّرها في الحياة الدّنيا، وإلا فالأجر من الله.

---

[٢] المصدر السابق، ص٩٠.

[٣] المصدر السابق، ص ٤٥.

[١] المصدر السابق، ص: ٣.

ومنها قيم شخصيّة، يدافع عنها، ويتشبّث بها، مثل الصّبر، وقول كلمة الحق والوقار والهيبة؛ فهو الصّبور المتجمّل حتّى لو استنزفه صبره كلّ طاقته، وهو قؤول للحقّ حتّى لو عرّضه هذا لضربات السّيوف، كما إنّه الوقور المحافظ على هيبته ووقاره في خضمّ أهوال الزّمن التي تحاول النّيل منه معزّزة بخطرات الموت المخيّم فوقه، كلّ هذا لا يخيفه فيجعله يغيّر قناعاته أو أحكامه على الأشياء إنّما يبقى الإنسان المبدئيّ، يحكم على الأمور بحقائقها، فلا يجامل أحدًا في قول كلمة الحقّ ويسمّي الأشياء بأسمائها؛ إذ الصّدق صدقٌ والكذب كذبٌ، لا يتهاون في ذلك، تجلّى هذا في قوله:

صبورٌ ولو لم تبقَ منّي بقيّةٌ قَؤُولٌ ولو أنّ السّيــوفَ جوابُ
وقورٌ وأهوالُ الزّمانِ تنوشني وللمــوتِ حولي جيــئةٌ وذهابُ
وألحظُ أحوالَ الزّمانِ بمقــلةٍ بها الصّدقُ صدقٌ والكِذابُ كِذابُ[٢]

ومنها الصّدق والانسجام مع النّفس التي لا تعرف الازدواجيّة أو النّفاق فداخلها صافي السّريرة وخارجها صادق الفعل، لا تناقض بين باطنها وظاهرها؛ لأنّ صاحبها يحترم مبادئه فيجسّدها واقعًا واعتقادًا كما في قوله:

أنا الفتى إنْ صبا أو شفَّه غزلٌ فــللعفاف وللتّقوى مآزرُهُ
وأنّني من صفتْ منه سرائرُه وصحَّ باطنه منه وظاهرُهُ[٣]

فهو إنسان، تعتلج في صدره مشاعر الحبّ والشّوق، لكنّه الإنسان الضّابط لهذه المشاعر، لا يترك لها عنان الغريزة والحسيّة، بل يحصنها بالعفاف والتّقى، فتتجلى بأسمى حالة؛ صادقة شفّافة، لها حرمتها التي لا يلحقها الدّنس، وهو بهذا يرسم صورة لنفسه تشفّ عن داخله الذي لا يختلف عن ظاهره وسلوكه.

ومن المبادئ التي لا يحيد عنها كونه وقومه في موقع الصّدارة، فلا يقبلون الموقف الوسط، فإمّا أن يكونوا روّادًا وإلا فسيموتون دفاعًا عن المكانة التي خلقوا لها، والتي تليق بهم، كما في قوله[١]:

---

[٢] المصدر السابق، ص: ٣٨ –٣٩.

[٣] ديوانه. ص: ٥١ – ٥٣.

[١] المصدر السابق، ص: ٩٣.

ونحنُ أناسٌ لا توسّطَ بيننا لنا الصّدرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ

هذا هو أبو فراس في بعده الأخلاقيّ، فكيف هو في بعده الإنساني؟

ب- قيمه الإنسانيّة:

البعدان الأخلاقي والإنسانيّ متكاملان؛ لأنّ الذي يتحلّى بمكارم الأخلاق يكون له امتدادٌ إنسانيّ، يتلاقى فيه مع غيره من البشر بالقيم الرّفيعة، التي تجمع المتشابهين في الرّوح والفكر والخلق، قيل:« العلاقة بالغير أو الآخرين هي علاقة جوهريّة من علاقات وجودنا الإنسانيّ؛ فالآخر هو أحد أبعاد الذّات التي لا يكتمل وجودها إلا به»[٢]

والقيم الجامعة لهؤلاء ينظمها تَصَوُّرٌ عن أنّها علاقات بينهم وبين الموضوعات التي يرون لها قيمة، فهي تعبّر عن سلوكهم، وتعكس حاجاتهم واهتماماتهم، وهي تهتمّ بتحقيق الأهداف البعيدة[٣]، وهذه القيم لا تهتمّ بالتجذّر في الحاضر المعاش فقط، بل تؤسس لأهداف بعيدة على المستوى الإنساني في المكان والزّمان، فالذي يتحلّى بها يشارك في رسم معالم الحياة الإنسانيّة الرّاقية.

والأبيات التي تعبّر عن القيم الإنسانيّة لدى أبي فراس، تذكر وتناقش وفق المحاور الآتية: الرّحمة والعدالة، التّسامح والبشاشة، والإحساس بالانتماء الإنساني بشكل عام.

١- الرّحمة والعدالة:

الرّحمة شعور إنسانيّ سامٍ، والذي يتحلّى به لا يستطيع إلا أن يكون رحيمًا بالمستضعفين وساعيًا إلى إنصافهم ومحاولة تحقيق العدالة لهم، وهذا ما عرف به أبو فراس إذ كان يرفض الظّلم، ويعدل مع الضّعفاء، ويواجه ذوي الشّموخ والأنفة كما في قوله: وأبذل عَدْلي للأضْعَفِيْنَ وللشّامخ الأنِفِ لا أبذلهْ[٤]

فانظر إلى استعماله (أبذل عدلي) هذه العبارة الدّالة على موقفه الأصيل من المستضعفين؛ فهو يعاملهم برحمة، ويمنحهم عدله بلا تردّد أو إكراه، بل ببذل لا محدود، وإيمان بأحقيّتهم بذلك لكنّه لا يفعل هذا مع الأقوياء. وهذا من خلق الفروسيّة الذي عرف

---

[٢] أحمد حيدر، *نحو حضارة جديدة*، ص: ١٧٤.

[٣] ينظر في (علم النّفس الاجتماعي) ص: ١٣٩.

[٤] ديوانه. ص: ٧٦.

به؛ والذي يقضي بذلك فيعامل الأقوياء بنديّة، تعترف بقوّتهم، وتعاملهم بالمثل؛ فتكون العلاقة بينهما علاقة مغالبة وانتزاع للحقوق، لكنّه لا يلحق الضّيم بالضّعفاء، ولا تقترف يداه الظّلم؛ لأنّ في قلبه رحمة لهم؛ ولأنّه عادل حتّى مع خصومه كما في قوله:

أبذل الحقَّ للخصوم إذا ما عجزتْ عنه قدرةُ الحكّامِ
لم تُخالِطْ يدَ المظالمِ كفّي حذرًا مِنْ أصابعِ الأيــتامِ[١]

فالفارس الرّحيم مع الضّعفاء، والنّدُّ للأقوياء يعامل الجميع بعدالة، ويعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتّى لو كان من الخصوم، إذا لم يستطع هذا الخصم الحصول على حقّه بسبب عسف الحكام وعجز ذوي السّلطان عن تحقيق العدالة له؛ فيد الشّاعر تنأى عن الظّلم بكلّ أشكاله، ومع كلّ النّاس حذرًا من أن يشير إليه يتيم بأنّه ظلمه؛ فهو لا يقوى على تحمّل وزره رغم قوّته وفروسيّته، وفي هذا تأكيد على تأصّل الرّحمة والعدالة لديه، فهو إنسان عادل؛ لأنّه يتحلّى بالفضيلة التي أنتجتها حكمته وعفّته وشجاعته، ووجّهها هو لتخدم القضايا العادلة، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه؛ فالإنسان الصّالح لا يستطيع إلا أن يكون صالحًا في تعامله مع الآخرين سواء كانوا أصدقاء أو خصومًا.

٢- البشاشة والتّسامح:

تواتر عن النّبي–صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال:«من أخلاق النّبيين والصّديقين البشاشة إذا تراءوا،والمصافحة إذا تلاقوا»[٢]ومن هو مطبوع على الرّحمة والعدالة لا يكون عبوسًا مكفهرّالوجه؛ لأنّ مشاعره تربطه بأخيه الإنسان، وتقرّبه منه، فيحسّ برغبة بالتّواصل معه، وأوّل طرق التّواصل ومشجّعاته بشاشة الوجه،هذه البشاشة التي كان أبوفراس يقدّرها في إخوانه،ممّن يتواصل مع الآخرين بدماثة وبشاشة في السّرّوالعلن كما في قوله:

فأحبُّ إخــواني إليَّ أبَشُّــهُــمْ بصديقه، في سرّه أو جهره[٣]

---

[١] المصدر السابق، ص: ١٢٧.

[٢] شهاب الدّين بن محمّد الأبشيهي، *المستطرف من فنّ مستظرف*، ص: ١٤٢.

[٣] ديوانه. ص: ٦٤.

استعمل صيغة التّفضيل (أحبّ) في اختياره أقرب الناس إلى نفسه، وفي هذا إسقاط لمشاعره ومكنوناته على ألفاظه المعبّرة، وتأكيد لأصالة القيم لديه؛ إذ اختار أبلغ الصّيغ تعبيرًا عنها وهو القائل أيضًا:

ولستُ بجهمِ الوجهِ في وجهِ صاحبي ولا قائلا للضّيف:إنّكَ راحلُ[٤]

فهو يرفض التّجهّم والعبوس في وجه الأصحاب والضّيوف، وينفي عن نفسه أن تتّصف بهذه الصّفات الذّميمة، وما هذا منه إلا لأنّه إنسان أخلاقي، يراعي مشاعر الآخرين، ويقدّر إنسانيّتهم، فلا يجرحها بسوء تصرّف، أو جفوة تعامل.

ثمّ إنّه متسامح، يغفر هفوات الآخرين، ويقابل إساءتهم بالحسنى، ويدعو إلى ذلك في التّعامل الإنساني، بقوله:

واحلُمْ، وإنْ سفُهَ الجليسُ فقلْ له حسنَ المقالِ إذا أتاك بهجره[١]

فهو يدعو إلى الحلم والتّعقّل في وجه السّفهاء، وإلى حسن القول في الرّد على سخفهم، وهذا لا يصدر إلا عن إنسان حكيم، متأصّل في الأخلاق الرّفيعة، سلوكه ينسجم مع قواعد ضميره ووجدانه، قيل:« تنبثق من صميم الأفراد قوّة باطنة فعّالة، تؤثّر في حياتنا الفكريّة وسلوكنا العملي، وتسعى إلى تهذيب غرائزنا، وضبط أهوائنا، وتوجيه أعمالنا، حتّى تتّسق كلّها مع تعاليم الضّمير، وتتآلف وقواعد الوجدان »[٢] وهذا ما كان لدى أبي فراس من خلق كريم جسّده قولا وعملا، تجلّى في تعامله مع إخوانه؛ إذ كان دمثًا معهم طائعًا لهم، لا يسعى إلى مؤاخذتهم، بل يبقى يصفح عنهم، ويغفر لهم أخطاءهم، فلا يمارس ردّات فعل وانتقام ممّن أساء إليه، بل يسامحه ويعفو عنه بكبرٍ وإنسانيّة كما في قوله:

ما كنتُ مذْ كنتُ إلا طوعَ خلاني ليست مؤاخذةُ الإخوان من شاني
يَجني الخليلُ فأستحـــلي جنايـــتَه حتّى أذلَّ على عفـــوي وغفراني
ويُتبعُ الذّنبَ ذنبًا حين يعرفـــني عـــمدًا، وأتبعُ غفـــرانًا بغفـــران
يجني إليَّ، فأحنو صافحًا أبـــدًا لا شيءَ أحسنُ من حانٍ على جانِ[٣]

---

[٤] المصدر السابق، ص: ٣٦.

[١] المصدر السابق، ص: ٦٤.

[٢] محمّد علي العجيلي،*الأخلاق عند فرويد*، ص: ١٩.

[٣] ديوانه. ص: ١٢٦.

تأمل قوله:(لا شيء أحسن من حانٍ على جان) كم ينطوي على معانٍ إنسانيّة فائقة الكبر على الصّعيد الرّوحي والإنساني والاجتماعي، فباستعماله لا النّافية للجنس ينفي جنس شيء أحسن من حنوّه على الجاني وصفحه عنه، فجعله هذا الأمر في قمّة أولويّاته يعبّر عن كبَر نفسه ورحابة صدره، فيبدو وكأنّه يعيش نشوة انتصار روحه ونوازعه الخيّرة على شرور الجناة ومقترفي الذّنوب؛ لأنّ لديه إحساسًا بمسؤوليّة العمل على رسم معالم الحياة الاجتماعيّة والإنسانيّة وتعزيز قيمهما. قيل: «إنّ الأصل في المطلب الأخلاقي والاجتماعي والدّيني أن يحبّ المرء غيره حبّه لنفسه، وأن يمضي في سلوكه نحوه على هذا الصّراط، ولكنّ الأثرة الوسواس تحول دون هذه الإنسانيّة في واقع التّصرّف الرّاهن. ومن هنا وجب ابتكار حلّ يقع موقعًا موائمًا بين الأثرة والإيثار، بين الأنا الفرديّة والآخرين؛ ليتسنّى للحياة الاجتماعيّة وجود وانفتاح وإثمار، وهذا الحلّ المبتكر يدعى التّسامح. والتّسامح اعتراف بوجود الآخر والآخرين، و رضى بهذا الاعتراف.»[٤] وأبو فراس راضٍ باعترافه بالآخر بل فرح بهذا الرّضى بدليل تسامحه معه، وحنوّه عليه، فجسّد بسلوكه التّسامح المثمر والاعتراف الإنساني المنفتح، قيل:« وإنّ من يعترف بقيمة الآخر، قيمة الغريب، فإنّما يبرهن على أنّه اكتشف لديه إحساسًا بالقيم، ومشاركة تطابق إحساسه ومشاركته ».[١]

كما إنّه يجاهد نفسَه من أن تضعف أمام استفزازات الآخرين؛ فيردّ الإساءة بالحسنة ويصفح عن أدواء الآخرين بتسامحه، وعفوه، كما في قوله:

فكم أمرٍ أغالبُ فيه نفــسي ... ركبتُ مكانَ أذني للنّجاح
أصاحب كلَّ خلٍّ بالتّجافي[٢] ... وآسو كلَّ داء بالسّمــاح[٣]

فهو بتسامحه اعترف بوجود الآخرين، واكتشف القاسم المشترك بينه وبينهم، وشارك في وضع ملامح الحياة الاجتماعيّة والإنسانيّة.

---

[٤] عادل العوّا، *التسامح من العنف إلى الحوار*، ص: ١٣.

[١] المصدر السابق، ص: ٩١.

[٢] جاءت هنا بمعنى البعد عن المخالفة.

[٣] ديوانه. ص: ١٩.

٣- إحساسه بالانتماء الإنسانيّ:

إنسانيّة الإنسان قاسم مشترك بين كلّ البشر مهما اختلفت أعراقهم وانتماءاتهم فقضاياهم واحدة، وإن اختلفت سبل تحقيقها من قوم إلى قوم، أو من فرد إلى آخر؛ فالإنسان أينما كان، وإلى أيّة مجموعة انتمى، تعنيه الحياة بكلّ أبعادها المحزنة والمفرحة، وتعنيه مقارعة الظّلم ودفعه، وتحقيق العدالة والحياة الكريمة. لكنّ النّاس يتفاوتون في فهمهم لقضايا الحياة، وفي معرفة وسائل التّعاطي معها؛ فمنهم من يسلك طريق التّحزّب والتّعصّب لبني قومه، ومنهم من ينطلق من منطلق إنسانيّ إلى عالم أرحب، وأبو فراس ينزع إلى الفريق الثّاني؛ إذ لولا حسّه الإنسانيّ لما رأيناه متسامحًا، معترفًا بوجود الآخرين، مقدّرًا للقيم لديهم فهو لا يعوّل كثيرًا على روابط النّسب المادّيّة المعهودة في إحساسه بالوجود الإنساني، إنّما يجد نفسه قريبًا ممّنْ يشبهه في الخُلُق ونقاء النّفس، فلا يميّز بين النّاس إلا بالمقياس الإنساني الأخلاقي، وهو في هذا يؤكّد انتماءه الإنسانيّ الذي لا تحدّه حدود النّسَب المعروفة، بل يكسر حواجزها ويتخطّاها إلى رحاب الكون ليلتقي مع من يشبهه روحيًّا وفكريًا وأخلاقيًّا كما في قوله:

وما أخوك الذي يدنو به نسبٌ لكنْ أخوكَ الذي تصفو ضمائرُه[٤]

ولأنّ قناعاته هكذا، وإحساسه الإنساني بهذه الكيفيّة، نراه يعامل جميع من يجاوره باحترام ويمنحه الإحساس بالأمان، لا عن ضعف وهوان، بل عن عزّة وثقة، وقناعة بأنّ التّعامل الإنسانيّ يجب أن يكون رفيعًا، لا تحصره قيود النّسب أو غيره كما في قوله:

أنا الذي لا يصيبُ الدّهرُ عزّتَه ولا يَبيتُ على خوفٍ مجاورُهُ[٥]

فهو لم يخصّص جماعة بعينها في هذه المعاملة، بل أقرّها في سلوكه مع كلّ مجاوريه. وفي هذا دليل أيضًا على انفتاح أفقه، وشعوره بانتمائه الإنسانيّ، وهذا ما تجلّى أيضًا في تأكيده لهذا المعنى بقوله:

إذا لم أجدْ في كلِّ فجٍّ عشيرةً فإنّ الكِرامَ للكِرام عشائرُ[١]

---

[٤] ديوانه. ص: ٥٣.

[٥] ديوانه. ص: ٥٣.

[١] ديوانه. ص: ٥.

فقوله: (كلّ فجّ) يعبّر عن نظرته الإنسانية غير المحدودة بإطار القوم أو النّسب، فعشيرته التي يجد نفسه فيها هي الجماعة الإنسانيّة التي تشبهه، لا التي ولد فيها، خاصّة إذا لم تحقّق هذه له الانسجام والإحساس بالانتماء؛ فقد دعا إلى الرّحيل عن الوطن الذي لا يحقّق له ذاته وعن الأهل الذين يعاملونه بما لا يرضى، والبحث عمّن يعامله بصفاء وإنسانيّة، قال:

دع الوطن المألــوف دأبُــكَ أهــلُه وعــدْ عن الأهلِ الذين تكاشروا
فأهلك مَنْ أصفى، وودُّكَ مَنْ صفا وإنْ نزحت دارٌ، وقلّتْ عشائرُ[٢]

فهو يضع أساسًا للعلاقة بين البشر؛ إذ أهل الإنسان الحقيقيّون هم المخلصون له، والذين صفت ضمائرهم تجاهه، وإن كانوا قلّة ومن بلدان بعيدة.

وهو على الرّغم من كونه إنسانًا واقعيًّا، أثّرت فيه بيئته بقوانينها ومتطلّباتها حاول بمنطلقاته الإنسانيّة التي منحته بعدًا إنسانيًّا أن يعبّر عن قناعاته، ورؤيته للحياة التي يطمح أن تكون مزدهرة كاملة؛ لأن لديه ميولا إلى قيم الخير والحقّ والجمال « فالإنسان ليس بآلة حبيسة في شبكة تحديدات طبيعيّة، بل هو كائن يتساءل حيال مصيره الذي يبحث عن نفسه ويبني ذاته بذاته، يتساءل عن معنى الحياة، ودلالة السّلوك، وأنّ الحاجة إلى التّجاوز ومعنى القيم أمران منقوشان في جبلّته النّفسيّة بوصفه كائنًا عاقلا» [٣] ولأنّ أبا فراس مدرك للعلاقة بالغير، ومدرك أنّ ذاته لا تكتمل إلا بوجود الآخر، كانت محاولته كسر قيود بيئته والانطلاق إلى عالم أرحب، رسم ملامحه من خلال شعره ومواقفه، قيل:« العلاقة بالغير أو الآخرين علاقة جوهريّة من علاقات وجودنا الإنسانيّ، فالآخر هو أحد أبعاد الذّات التي لا تكتمل إلا به»[٤] فالإنسان الحرّ يثق بقدراته، وبالآخرين فيقيم حوارًا، ويتواصل معهم من منطلق الثّقة بالنّفس، والقناعة بوحدة الوجود الإنسانيّ؛ للارتقاء إلى عالم أفضل، قيل: «فالأحرار يخلصون لذات الآخر وحرّيّته من أجل أن يقيموا معه حوارًا، والعبيد وحدهم... هم الذين يعملون على عبوديّة الإنسان»[٥]

---

[٢] ديوانه.ص: ٦.

[٣] محمّد علي العجيلي، *الأخلاق عند فرويد* ، ص: ١٣.

[٤] أحمد حيدر، *نحو حضارة جديدة*، ص: ١٧٤.

[٥] أحمد حيدر، *نحو حضارة جديدة*، ص: ١٩٠.

مناقشة:

آثار الإنسان تكشف طبيعته، فتقدّم دلالات ترسم شخصيّته، وتحدّد ماهيّته؛ فالعلاقة تواصليّة بين الإنسان وأثره، قيل:«الإنسان مصدر الأثر، لكنّ ماهيّة الإنسان لا يمكن إدراكها إلا في الأثر»[١] وهذا ما يؤيّده هذا البحث؛ إذ من خلال شعر أبي فراس استطعنا الوقوف على ملامح شخصيّته ببعديها الأخلاقي والإنساني، وبقيمهما التي اختارها بإرادته وقناعاته؛ فالمعروف أنّ الإنسان يختار سلوكه، ويحدّد لنفسه منهجًا أخلاقيّا، يعبّر عنه قولا وعملا، قيل:« صحيح أنّ العقيدة مجال الإيمان، وأنّ العلم مجال الاحتمال، أمّا النّظر القيميّ فمجاله القرار والإرادة والاختيار»[٢] فلماذا اختار الشّاعر هذا المنهج الأخلاقي؟ وما الذي دعاه إلى التّحلي بتلك القيم التي وقفنا عندها؟ خاصّة أنّه الأمير ابن الأمير، تربّى في ترف البلاط، وكان ذا سلطان وجاه وعزّة ملك، وأيّ مكوّن من هذه المكوّنات كفيل بإفساد الإنسان وانحرافه إذا لم تكن لديه حصانة، تعصمه عن الزّلل، فما العوامل التي حصّنت الشّاعر، وجعلته على تلك الصّورة المشرقة أخلاقيًّا وإنسانيًّا؟

-ربّما يعود الأمر إلى استعداده الفطري، وخصائص جوهره الذّاتيّة، قيل:« إنّ جوهر الإنسان يتمثّل في عمق الفطرة وثرائها، فيه إمكانيّات الإنسان الكامنة، وطاقاته المتأصّلة، تلك التي تجسّد الطّبيعة الإنسانيّة، وتعطي الإنسان معنىً لوجوده وهدفًا لحياته فيه تحقيق لإنسانيّته، وإعلاء للنّفس فوق ماديّاتها»[٣] فبنية الإنسان النّفسيّة تحدّد طبيعته وترسم معالم شخصيّته، وتفسّر مواقفه وسلوكه. وقد كانت حكمة أبي فراس منبع إرادته القويّة التي ضبطت سلوكه، ووجّهت مواقفه؛ لتكون مشروعًا إنسانيًّا، يسعى إلى خدمة الإنسان، والارتقاء به إلى مستوى إنسانيّته، قيل:« النّفس تدير البدن وتتحكّم في الأعضاء وتقاوم البدن بالإرادة متى كانت حكيمة»[٤] ونفس الشّاعر خير مثال على الحكمة وحسن التّدبّر.

-وربّما يعود أيضًا إلى أصالة نسبه؛ فهو من الحمدانيين الذين عرفوا بكرم الأصل ومكارم الأخلاق، وطبعوا على الفروسيّة والسّماحة، قيل:«كانت الشّجاعة والفروسيّة

---

[١] جان بيلمان نويل، *التّحليل النّفسي والأدب*، ص: ٩١.

[٢] عادل اعوّا، *التّسامح من العنف إلى الحوار*، ص: ٢٦.

[٣] حمدي الفرماوي، *ركائز البناء النّفسيّ*، ص: ٣٤٢.

[٤] يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانيّة*، ص: ٨٨.

وروح المغامرة بالإضافة إلى الكرم والفصاحة والشّعر والسّماحة هي الصّفات التي اتّصف بها أفراد الأسرة الحمدانيّة».[٥] وأبو فراس من هذه الأسرة التي طبعت على أصالة الأخلاق وتميّزت بالرّوح الإنسانيّة المنفتحة على كلّ الأجناس والأديان، فكانت أخلاقه وسلوكه في سياق منسجم مع البيئة التي عاش فيها، والنّسب الذي ينتمي إليه، والأجواء الأخلاقيّة والإنسانيّة التي اتّسم بها قومه؛ فهو سليل هؤلاء القوم، وثمرة هذا البيت الضّاربة جذوره في الأصالة والقيم؛ إذ قد قدّم بسلوكه ومواقفه دليلا واقعيًّا على ما اتّصف به هذا البيت العربيّ من كريم الصّفات، ورفيع الأخلاق.

-كما يمكن أن يعزى الأمر إلى نشأته في بلاط سيف الدّولة الذي أولاه حسن التّنشئة والرّعاية، وهيّأ له العيش في بيئة تربويّة خاصّة، وأجواء ثقافيّة فكريّة راقية، ممّا أتاح له الاستفادة من كلّ هذه الأجواء لصقل شخصيّته؛ فالإنسان ابن بيئته الاجتماعيّة والثّقافيّة والرّوحيّة وغيرها. قيل في معرض الحديث عن القيم:

«إنّها جزء من التنظيم الذي يسيطر على سلوكنا، ويعكس حاجاتنا واهتماماتنا، وأهدافنا بالإضافة إلى أنّه يعكس بصور مختلفة، وبدرجات متباينة النّظام الاجتماعي الذي نعيش فيه والتّراث الثّقافي الذي ننشأ فيه»[١] وأبو فراس عاش في النّظام الاجتماعي الذي كان الحمدانيّون سادته، ومدبّريه بما اتّصفوا به من صفات سجّلت لهم، كما إنّه ابن تراث ثقافيّ حافل بالفكر والمفكّرين، في بلاط احترم العلم وقدّره، ورعى العلماء والمثقّفين.

-كذلك من الممكن أن يعزى الأمر إلى تديّنه وعقيدته؛ إذ تديّنُ أبي فراس مسألة أساسيّة في تكوينه الرّوحي والفكريّ، وهو لا ينفصل عن ثقافته وإبداعه وممارساته[٢]. فمواقف أبي فراس وأعماله شاهد حيّ على تديّنه وإيمانه؛ خاصّة أنّ التّديّن الحقيقي هو ما وقر في القلب، وجسّده صاحبه في العمل والسّلوك، وهذا ما يؤيّده قول الحسن البصري:«ليس الإيمان بالتّمنّي، ولا بالتّحلّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقه العمل»[٣]

---

[٥] حسن الأمين، *دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة*، ١١/ ١٣٥.

[١] شفيق رضوان، *علم النّفس الاجتماعي*، ص: ١٣٨-١٣٩.

[٢] ينظر كتاب: شعر أبي فراس، دلالاته وخصائصه الفنيّة. ص: ١٠٧.

[٣] الجاحظ، *البيان والتّبيين*، ٣ / ٧٥.

وكذلك القول:«الدّين ليس مجرّد صلاة وصيام، ولكنّه مجموعة قيم مثاليّة تتناول صميم الحياة»[٤]

مجمل هذه الأسباب يوضّح المكوّنات الأساسيّة لشخصيّة أبي فراس ببعديها الأخلاقي والإنسانيّ، لكن ما دور هذه القيم في حياتنا البشريّة؟

دور القيم في بناء مجتمع إنسانيّ:

القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة أهمّ ما يميّز المجتمع البشري من غيره من المجتمعات فهي التي تمنحه طابعه الإنسانيّ، وهي التي تهيّئه ليليق بإنسانيّة الإنسان.

من هنا نقول: إنّ دورها ضروريّ وملحّ في تأسيس هذا المجتمع، وفي إعطائه بعدًا مستقبليًّا يضمن للإنسان حياة أفضل، قيل[٥]:« وفي الحقيقة، فإنّ العلم حين يتّجه ببصره نحو ما هو قائم بالفعل، فهو يعمد إلى الكشف عن الطّبيعة، وتحقيق الماضي في صميم الحاضر على حين أنّ الأخلاق تستمدّ من الماضي، وتتّجه بنا نحو المستقبل؛ لتطبعه بطابع المثل الأعلى؛ حتّى يصبح أفضل ممّا كان عليه كلّ من الماضي والحاضر.»

وبالعودة إلى قيم أبي فراس نجدها خير مثال على تأكيد هذا القول؛ فقد استمدّها من ماضي بيئته، وتراث قومه، وواجه بها مشكلات واقعه على الصّعيد الاجتماعي والسّياسي والشّخصيّ، وحاول أن يرتقي بها إلى عالم أرحب، وأن يؤسّس لمستقبل أفضل؛ فهو عندما تحلّى بها، وحاول تطبيقها على نفسه قولا وفعلا، وضع الأسس الأولى لهذا المستقبل الذي يطمح إليه كلّ إنسانٍ يسعى إلى أن يعيش في مجتمع إنساني، يتّسم بالقيم الرّفيعة، ويبتعد عن وحشيّة الفطرة وقسوتها.

واستطاع أبو فراس أن يفعل ما فعله، وأن يتغلّب على صعاب الحياة،؛ لأنّه كان مسلّحًا بهذه القيم التي منحته القوّة والحكمة في إدارة الأمور، وفي التّخلّص من المآزق في أسره، وفي حرّيّته، كما استطاع أن يكون بعفويّة صفاته من المؤسّسين لقواعد المجتمع الإنساني، ومن الذين كشفوا الخلل فيه، وحاولوا رسم معالمه الفضلى بكلّ ما قاله وفعله

---

[٤] حافظ الجمالي، « حرّيّة الفكر في الحضارة العربيّة الإسلاميّة» *التّراث العربي*، ص: ١٩. العدد الثاني ١٩٨٠ م.

[٥] محمّد علي العجيلي، *الأخلاق عند فرويد*، ص: ٣٤٦.

قيل:«وانغماس الشّاعر بحياة البلاط المترفة لم يصرف عن شعره الإشارة إلى موطن الخلل في التّركيبة الاجتماعيّة»[١] لكن رغم نبل مسعاه لم يعش كلَّ حياته في بيئة حاضنة لأخلاقيّاته ومبادئه، بل واجه خصومًا من بيئة مغايرة، فكان ممّن دفعوا حياتهم ثمنًا لمواقفهم إذ كانت الغلبة للعنف، وللجانب الفطريّ الحيوانيّ في شخصيّة الخصم الذي لم ينشأ في بيئة حاضنة راقية كالتي رسمت معالم شخصيّة أبي فراس.

هذه هي طبيعة الصّراع بين الخير ومثاليّته، والشّرّ ووحشيّته لكن حتّى لا تبقى النتيجة بهذه الكيفيّة المؤلمة، على المجتمع الإنساني أن يعتمد القيم الرّفيعة في التّنشئة الأولى للأجيال، من خلال المناهج الدّراسيّة، والأبحاث الاجتماعيّة والنّفسيّة بحيث تخلق جوًّا عامًّا يألفه الجيل؛ فالإنسان عندما يعتاد الفضيلة بعيشه في مجتمع يحضّ عليها، سواء في التّربية البيتيّة أو غيرها يألف أجواءها، وترتاح نفسه لقيمها، حينها تسهل عمليّة اعتماد سياسة تعليميّة، تسعى إلى ترسيخ القيم، وتغليب الجانب الأخلاقي على الجانب المادّي النّفعيّ برعاية الإرادات الواعية، والقوانين العلميّة النّاظمة التي تهدف إلى ضمان كرامة الإنسان وصون إنسانيّته من توحّش ما يسيء إليها، فينضبط المجتمع، ويرتقي سلوك أفراده إلى مستوى إنسانيّتهم. فالأخلاق ضابطة لسلوك الإنسان، تلجم عفويّة فطرته، وتحمله على التّعقّل، فتوجّه سلوكه، وتجعله يعيش في مجتمع أكثر أمنًا وإنسانيّة[٢]، وهذا ما حاول أبو فراس فعله.

نتائج البحث:

١- تحلّى أبو فراس بقيم أخلاقيّة وإنسانيّة رفيعة، كانت نتاج بيئة حاضنة راقية جعلت منه شخصيّة إنسانيّة حكيمة، خلدت على مرّ الزّمن.

٢- ليست الحكمة وليدة عمر طويل وتجارب، بل هي نتاج خلق كريم، صاغته خصائص فطريّة متأصّلة في شخصيّة صاحبها.

٣-تتضافرعوامل التّنشئة والثّقافة،والاستعداد الفطري على خلق القيم الرّفيعة للإنسان؛ لذلك على المجتمع الإنسانيّ الحقّ أن يراعي هذه الأمور في التّأسيس لمستقبل الأجيال.

---

[١] عبد اللطيف عمران، *شعر أبي فراس الحمدانيّ، دلالاته وخصائصه الفنّيّة*، ص: ٨٦.

[٢] يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانيّة*، ص: ٢٥٤.

٤- كان أبو فراس توّاقًا إلى أفق أرحب في التّعامل الإنسانيّ رغم اعتزازه بأصله وقومه، فحاول تأسيس منهج أخلاقي، تنتظمه قيم إنسانيّة رفيعة، لا تقتصر على قومه، بل تتطلّع إلى تعامل إنسانيّ، بعيد عن حدوده الضيّقة.

٥- يمكن اعتماد منهجه الأخلاقي قانونًا مؤسّسًا لمجتمع إنسانيّ جديد، قائم على القيم التي تعزّزها مناهج تعليميّة، وأبحاث علميّة، وسلطة راعية ومشرفة على حضانة هذه القيم؛ تكافئ من يعزّزها، وتزجر من يستهين بها.

٦- لم يقتل أبو فراس على يديّ ابن سيف الدّولة كما تذكر بعض المصادر، بل قتل على يديّ (قُرْغُوَيه) المتحكّم التركي بالملك والسّلطان. [١] وقتله كان قتلا سياسيًّا؛ لأنّه بأخلاقيّاته كان يشكّل تهديدًا لطموحات قاتله المؤيّد بالسّلطة والنّفوذ.

٧- تبقى القيم الرّفيعة عنوان إنسانيّة الإنسان، والحامي لها من وحشيّة الفطرة وقسوتها؛ لذلك يجب نشرها في المجتمع، والعمل على ترسيخها في بنيته الفكريّة والتربويّة مدعومة بالقوانين الرّاعية لها على الصّعيدين الرّسمي والمجتمعي.

المصادر والمراجع

١- الأبشيهي، شهاب الدّين بن محمّد، *المستطرف في كلّ فنّ مستظرف*، تحقيق: عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت: دار القلم.

٢- ابن أبي جرادة، كمال الدّين بن عمر، تحقيق: سهيل زكار، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، دمشق: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧ م

٣- ابن خلدون المغربي، عبد الرّحمن، *العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب* دار الينابيع، ١٩٩٩م.

٤- ابن خلدون المغربي، عبد الرّحمن، *مقدّمة ابن خلدون*، الإسكندريّة: دار ابن خلدون.

٥- ابن خلّكان، شمس الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان*، تحقيق: د. إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر.

٦- ابن عساكر، *مختصر تاريخ دمشق*، تحقيق: مأمون الصّاغرجي وأحمد حمّامي. مراجعة: رياض عبد الحميد مراد ط١، دمشق: دار الفكر،١٩٨٤م.

[١] ينظر في: مرآة الجنان ٢/ ٣٧٠، ومختصر تاريخ دمشق: ٦/ ١٥٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٦١. وشذرات الذّهب ٣/ ٢٥. وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٤٢، والأعلام ٢/ ١٥٥.

٧- ابن منظور، *لسان العرب*، ط٣، بيروت: دار إحياء التّراث العربي، مؤسّسة التّاريخ العربي،١٩٩٣م.

٨- الأمين،حسن،*دائرة المعارف الإسلاميّة الشّيعيّة*،ط٢،دار التّعارف للمطبوعات ١٩٨١م

٩- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، *البيان والتّبيين*، بيروت:دار الكتب العلميّة.

١٠- الحسين بن أحمد الزّوزني، *شرح المعلّقات السّبع*، *بيروت*: دار القاموس الحديث

١١- الحنبلي،ابن العماد،*شذرات الذّهب في أخبارمن ذهب*،دار الفكرللطباعة والنّشر والتّوزيع.

١٢- حيدر، أحمد، *نحو حضارة جديدة*، ط١، مطبعة الإنشاء، ١٩٦٩م.

١٣- الذّهبي، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان، *تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام*، تحقيق: د.عمر عبد السّلام تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٨٩م.

١٤- العجيلي، محمّد علي، *الأخلاق عند فرويد*، *دراسة تحليليّة نقديّة*، ط٢، دمشق: دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ٢٠٠٧م.

١٥- عفيف الدّين اليافعي اليمني المكّي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان*، ط ١، حيدرآباد.

١٦- عمران، عبد اللطيف، *شعر أبي فراس، دلالاته وخصائصه الفنّيّة*، ط١، دمشق.

١٧- العوّا، عادل، *الأبحاث الأخلاقيّة*، دمشق: ١٩٦٤م .

١٨- ـــــــــ، *التّسامح من العنف إلى الحوار*، ط١، دمشق: دار الفاضل،٢٠٠٢م

١٩- الفرماوي، حمدي،*ركائز البناء النّفسي*، ط١، القاهرة: إيتراك والنّشر *والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر* ، ١٩٧١م.

٢٠- رضوان، شفيق، *علم النّفس الاجتماعي*، بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات الذكن: دائرة المعارف النّظاميّة.

٢١- الزّركلي، خير الدّين، *الأعلام*، ط١٧، بيروت: دار العلم للملايين،٢٠٠٧م.

٢٢- كرم، يوسف، *تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ط٥، القاهرة:* مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، ١٩٧٠م .

٢٣- نويل،جان بيلمان، *التّحليل النّفسي والأدب*،القاهرة: المجلس الأعلى للثّقافة المشروع القومي للتّرجمة، مطابع الأهرام بكورنيش النّيل، ١٩٩٧م.

٢٤- *التّراث العربي*،العددالثاني، السنة الأولى، دمشق: اتّحاد الكتاب العرب،١٩٨٠م.

٢٥- ديوان أبي فراس الحمداني، دمشق: دار كرم للطباعة والنّشر.